المجمع 12 (2017/1438)، 45-60

وثيقة إنشاء الأمّة أو دستور المدينة

ملاحظات حول مفهوم الأمّة: دورها ومكانتها بين الأمم

خليل عثامنة*

تلخيص:

استقطبت هذه الوثيقة آراء الباحثين من المستشرقين وغيرهم من العرب والمسلمين وأجمع اتّفاقهم على اعتبارها دستور الدولة الإسلامية، واختير لها عنوانٌ في هذا المنحى وهو ما اتُّفق عليه بـ"دستور المدينة للنبي محمد."

سأتناول في هذا المقال ما غاب عنهم وبالتحديد ما تجنّبوه من ذكر ماهيّة الأمّة، دورها ومكانتها بين باقي الأمم. هذا الخلل العارض في بحوثهم قد تلافته آية من القرآن الكريم اشتملت على إجابات قاطعة لكل ما غاب عن أذهانهم، فجاء فيها أن أمّة الإسلام هي الأمّة التي اختارها الله لتكون الحكم الذي يقرّر مصير الأمم يوم الحساب؛ لأن الله قد جعلها أفضل الأمم وأعدلها كونها فوقهم جميعًا.

كان نشوء دولة الإسلام في المدينة المنورة، وكان امتداد نفوذها في سائر مناطق شبه جزيرة العرب، حصيلة النشاط السياسي والتشريعي الذي اضطلع به النبي محمد منذ هجرته وحتى يوم وفاته، وهو ما تمثّل بمجموعة من الرسائل والمعاهدات والوثائق التي نظّمت علاقته بالقبائل العربية وبالمجموعات الإثنيّة وبالطوائف الدينية الأخرى في الجزيرة العربية[2].

لفتت هذه الوثائق أنظار الباحثين والرواة والمؤلفين المسلمين منذ القرن الأول للهجرة، باعتبارها جزءًا أصيلًا من تراث النبي لما لها من قيمة تاريخيه وتشريعية، واستقطبت بشكل خاص عناية الجيل الأول من الرواة ومن جاء بعدهم من المؤرّخين كعبد الله بن عباس والزهري وابن إسحاق والواقدي وابن الكلبي وابن سعد والمدائني والبلاذري ومحمد بن جرير الطبري، فتناولتها بعض مؤلّفاتهم التي حملت عناوين مثل: عهود النبي، رسائل النبي، كتب النبي إلى الملوك، وكتاب إقطاع النبي وغير ذلك من عناوين لها صلة بهذا التراث[3].

---

* أكاديمية القاسمي.

[2] عون الشريف، **نشأة الدولة الإسلامية على عهد رسول الله**، ط.3. دار الجيل، بيروت، 1991، ص 9.

[3] ابن النديم، الفهرست (ت: أيمن سيّد) مؤسسة الفرقان للتراث، لندن، 2009، ج 1(2)، ص 315-323.

وتجدر الإشارة في هذا السياق أن معظم المؤلفات التي صنّفها الباحثون المسلمون الأوائل، لم تعد متيسّرة في عصرنا هذا، إما لأنها فُقِدَت أو لأنها ما زالت قابعة في خزائن الكتب على شكل مخطوطات لم ترَ النور بعد. وإن ما عرف منها قد كشفت عنه المصادر المتعدّدة ككتب التاريخ والسيرة والفقه والتراجم، مثل كتاب الخراج وسيرة ابن هشام وكتاب الطبقات لابن سعد وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام[1].

نصّ الوثيقة

كان من أهم ما كشفت عنه المصادر الإسلامية، نصّ الوثيقة التي تناولت نشوء الأمّة، وهو الموضوع الذي ستدور من حوله بعض التعليقات والملاحظات التي سأوردها في هذه المقالة. أورد المؤرخ عبد الملك بن هشام (218هـ/833م) الذي هذّب كتاب سيرة النبي لمؤلفه محمد ابن إسحاق (151هـ/768م)، نصَّ تلك الوثيقة فكتب يقول: "وكتب رسول الله كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم أنهم أمّة واحدة من دون الناس"[2].

فصّلت بنود الوثيقة شروط العقد بين النبي وبين أهل يثرب من المهاجرين والأنصار مع من تحالف معهم من القبائل سواء تلك التي أسلم أفرادها أو التي بقيت على شركها ولم تعتنق الدّين الجديد، وهم مجموعة من البطون من قبيلة الأوس سمّاهم ابن إسحاق أوسَ الله[3].

---

[1] Hamidullah M., *Documents sur la diplomatic Musulmane* , Paris 1936.

[2] ابن هشام، سيرة النبي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، القاهرة 1963، ج2، قارن: القاسم بن سلّام، الأموال، تحقيق: محمد خليل هرّاس، مكتبة الكلّيات الأزهرية، القاهرة 1868، ص 348-351؛ ونقل نصّ الوثيقة أيضًا عن ابن إسحاق الحافظ محمد بن يحيى المعروف بابن سيّد الناس في كتاب السيرة المعروف بـ "عيون الأثر"، دار الفكر للطباعة، ج.1 ص 197-199 ونقلت الوثيقة بنصها عن ابن إسحاق من قبل الحافظ ابن كثر (774هـ / 1372م) في كتاب البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط.3. 1980، ج3، ص 224-226. وذكر محمد بن سعد في كتاب الطبقات، تحقيق: ادورد زاخاو، ليدن ،1905، أن هذه الوثيقة قد كتبت في دار أنس بن مالك، ج1 (2) ص1.

[3] سيرة النبي، ج ص 347.

ونقل أبو عبيد القاسم بن سلّام (224هـ/838م) بروايته عن ابن شهاب الزهري خبر هذه الوثيقة التي كتبها النبي مع المهاجرين والأنصار ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم، واعتبرهم أنهم جميعًا أمّة واحدة من دون الناس، وهي العبارة الأم التي أعطت المسلمين جميعًا صفة الأمّة فصاروا يُعرفون بأنّهم أمّة الإسلام[1].

ويجدر بالذكر أن الوثيقة التي نحن بصددها لم تقتصر على تنظيم العلاقة بين المهاجرين والأنصار بل نظّمت العلاقة بين النبي وطرفي المعاهدة من جهة وبين الجماعات اليهودية في يثرب من جهة أخرى، فقال ابن إسحاق: "وكتب رسول الله كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم أنهم أمّة واحدة من دون النّاس"[2].

وكانت الموادعة في ذلك الزمان تعني المصالحة والمسالمة بين طرفين متخاصمين فلا يُبَيِّت طرف عدوانًا أو أذى للطرف الآخر ولا يبادره بغزوٍ أو هجوم[3]. وأورد الواقدي خبر هذه الموادعة فقال: "لمّا قدم رسول الله المدينة وادعته يهود كلّها، وكتب بينه وبينهم كتابًا، وألحق كل قومٍ بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أمانًا وشرط عليهم شروطًا، فكان فيها شرط ألّا يُظاهروا عليه عدوًّا[4].

يتبين من خلال بنود الوثيقة أنها تناولت مجتمع المدينة الذي كان يتكوّن من مجموعتين متمايزتين، فكانت المجموعة الأولى تشمل المهاجرين وتشمل الأنصار وهم قبيلتا الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل المتحالفة الأخرى. أما المجموعة الثانية فتتكون من القبائل

---

[1] كتاب الأموال، تحقيق: محمد خليل هرّاس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1968، ص 290-297.

[2] سيرة ابن هشام، ج 2 ص 348.

[3] لسان العرب، (و.د.ع)، ج 8 ص 386؛

Lecker M., *The Constitution of Medina*, Princeton, 2004, appendix E, pp. 204-205.

[4] الواقدي (207 هـ/ 822 م)، تحقيق: مارتسون جونس، مؤسسة الأعلى، بيروت،1966 م، ج 1 ص 167، قارن: علي برهان الدين الحلبي (975هـ/1567م)، السيرة الحلبية، مصطفى الحلبي، القاهرة، 1964، ج 2 ص 474، ج 2 ص 559؛ المقريزي، إمتاع الأسماع، ج1 ص 204؛ المقريزي، إمتاع الأسماع، ج1 ص 204.

اليهودية الثلاث: وهم بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة، فكان جُلّ اهتمام النبي منذ وطئت أقدامه يثرب، مُنصبًّا على تحقيق الاستقرار لمجتمع المدينة، فعمل على تقريب شُقّة الخلاف بين المجموعات المدنية المتصارعة، وسعى لإحلال الوفاق بين الجماعات المختلفة محلّ العداوة السائدة التي جرت عليها عادة أبناء القبائل، فكان الهدف النهائي الذي وضعه النبي نصب عينيه هو التصدّي للخطر الذي يهدّد محمدًا وأتباعه من أنصار الدين الجديد والذي تُمثّله قريش وحلفاؤها من العرب وغير العرب[1]، لكن بلوغ هذا الهدف لم يكن سهل المنال واحتاج تحقيقه إلى جهد ومثابرة لأن عملية التوفيق بين العناصر القبلية كانت مشحونة بالتعقيدات، ويمكن القول في هذا السياق بأن العملية قد اكتملت على مرحلتين: فتمّ في المرحلة الأولى توحيد غالبية القبائل العربية التي كانت تجمعها العقيدة المشتركة التي دعا إليها الدّين الجديد، ولكن هذا التوحيد لم يكن شاملًا إذ لم تكن كلّ القبائل والبطون قد اعتنقت الإسلام بل استمرت على وثنيّتها[2]. وهذا ما استدعى كثيرًا من المرونة السياسية التي كان قد حذقها رسول الله[3]. بعد ذلك جاءت المرحلة الثانية وتمثّلت بانخراط المجموعات اليهودية التي اضطرّت للانضمام إلى هذا التوافق مع الجماعة الإسلامية.

ولم تكن هذه المجموعات تشكّل كيانًا سياسيًا موحّدًا، فكان انضمامها فُرادى، مستقلّة بعضها عن البعض الآخر، وكان العامل المشترك فيما بينها أنها كانت ترتبط بالقبائل العربية في يثرب برابط الحِلف أو الولاء، ولذلك رأينا أن البطون اليهودية التي سمتها الوثيقة كانت مضافة دائمًا إلى إحدى القبائل العربية في المدينة على أساسٍ من حلفها أو ولائها لتلك القبيلة. فذكر يهودُ بني عوف ويهود بني النجّار، ويهود بني ثعلبة وبعض البطون القبلية الأخرى التي تنتمي جميعها إلى القبائل العربية في المدينة بينما أغفلت الوثيقة ذكر قبائل

[1] عون الشريف، م. س.، ص 22-24.

[2] ابن هشام، ج 2 ص 358.

[3] Watt M., *Muhammad as a statesman*, Oxford University Press, 1964 P 124 FF.

اليهود الثلاث التي أجمعت المصادر على أنها تمثّل غالبيّة يهود المدينة، كبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة[1].

أما سبب هذا التغيير المفاجئ في موقف الجماعات اليهودية، فقد أتى نتيجةً لتغيّر المعطيات على الساحة السياسية في المدينة، فبعد انتصار النبيّ على قريش في معركة بدر، قويَت شوكة المسلمين في المدينة، ولم يعد أمام اليهود من خيار سوى الإذعان لمشيئة النبي ورغبته في ضمّهم إلى جماعة المسلمين.

ولعلّ تطوّر الأحداث التي أعقبت الهزيمة المنكرة لقريش في معركة بدر، وما تلا ذلك من تدبير المسلمين لاغتيال أحد رموز يهود المدينة وهو "كعب بن الأشرف" الذي سبق للنبي بأن هدر دمه ودم كلّ يهودي يظفر المسلمون به، هو ما عجّل انصياع اليهود لخطّة محمّد (ص) المتمثّلة بمشروع إنشاء الكيان الجديد الذي سمّاه "الأمّة"، حين بلغ الذّعر في أوساطهم مداه حتى خاف كلّ يهوديّ على نفسه[2]، فوجدها النبي فرصةً مناسبة ودعا قبائل يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتابًا يلتزمون فيه بشروط اشترطها عليهم، وكانت هذه القبائل مؤلفة من بني قينقاع، وبني النضير وبني قريظة[3]. ولكن توقيع الجماعات اليهودية على هذا الكتاب، لم يجعل منهم جزءًا من الأمّة، صحيح أن الوثيقة قد وصفتهم بأنهم "أمّة من المؤمنين" ولكن أبا عبيد القاسم ابن سلّام فسّر هذه العبارة فقال: "انّما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم، فأما الدين فليسوا منه في شيء"، ألا تراه قد

[1] عون الشريف، م. س.، ص 34.

[2] ابن هشام، سبق ذكره، ج 2 ص 567-569؛
الطبري، **تاريخ الطبري**، (ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1960، ج 2 ص 488-491)؛ عيون الأثر، سبق ذكره، ج 1 ص 298-301؛ مقريزي، **إمتاع الأسماع**، (ت: محمد محمود شاكر، قطر، (د.ت) ج 1 ص 109-110؛ السهيلي، ج 5 ص 402.

[3] مغازي الواقدي، ج1 ص 192؛ قارن أيضًا: البداية والنهاية، ج 3 ص 347.

بين ذلك فقال: "لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم". فجعل الأمّة التي ذكرتها الوثيقة، صفة مقصورة على المؤمنين أي من اعتنق الإسلام، ولم تشمل اليهود وأتباع الديانة اليهوديّة[1].

وثيقة إنشاء الأُمّة والمستشرقون

كغيرها من المواضيع ذات الصلة بالدعوة الإسلامية، حظيت هذه الوثيقة النبوية باهتمام المستشرقين، فكان المستشرق الألماني يوليوس فلها وزن سبّاقًا في دراستها، حيث عرّف بمكوناتها وفصّل بنودها وشرح مضامينها وبيّن الحقب الزمنية التي شهدت كتابة نصوصها. وقام بنشر هذه الدراسة في العدد الرابع من الفصلية الألمانية Skizzen und Vorarbeiten, 1889, pp.80 تحت عنوان: Muhammad's Gemeindeordnung von Medina وهو ما اصطلح على تسميته "دستور النبي محمد للمدينة". ثم استخدمت الخلاصات والاستنتاجات التي توصل إليها فلهاوزن في الكتاب الموسوعي الذي ألّفه المستشرق الإيطالي Leone Caetani حول تاريخ الإسلام بعنوان Annali dell'Islam (ج1 ص391-408)، ثم ألحق مقال فلهاوزن بكتاب A.J. Wensinck بعنوان: "محمد ويهود المدينة" والذي ترجم إلى الإنجليزية من قبل Wolfgang Behn وصدر في مدينة فرايبورغ سنة 1975. ثم أعطيت دراسة دستور المدينة زخمًا جديدًا في الدراسة التي حملت عنوان: "محمد في المدينة" ص221-260 لسنة 1956 بقلم W.M. Watt وتوالى اهتمام المستشرقين الغربيين بهذا الموضوع حيث أفنى المستشرق البريطاني ستيفان همفري سنين كثيرة في شرح وتوضيح نصوص هذه الوثيقة مستعينًا بخبرته ومعرفته الواسعة بعادات وأعراف قبائل اليمن. ونشر ما توصّل إليه من نتائج في مقال حمل العنوان ذاته في الفصلية البريطانية Islamic Quarterly (8) لسنة 1964، ص 3-16. وأتبع ذلك بدراسة أخرى حملت عناوين متعددة ونشرت في المجلة التي تصدرها جامعة لندن BSOAS، عدد (41) لسنة 1978، ص 1-42[2].

---

[1] الأموال، ص 296-297.

[2] R. Stephen Humphreys, Islamic History, *A framework for Inquiry*, Princeton, 1991. Pp. 92-93.

وجدير بالملاحظة في هذا السياق القراءات المختلفة للوثيقة النبوية عند بعض المستشرقين الإسرائيليين من ذوي الرؤى الصهيونية، فجاءت استنتاجاتهم مختلفة عمّا أسفرت عنه دراسات المستشرقين الأوروبيين، وكان ذلك نابعًا، على ما يبدو، من تجاوز مقصود للنصوص المكتوبة انسياقًا لقناعات مسبقة تستبطن العداء للنبي محمد ولدعوة الإسلام. فنشر الباحث M. Gil مقالًا تناول فيه موضوع الوثيقة وصف فيه ما صنعه النبي مع بني قريظة بأنه كان جزءًا من مكيدة مدبرة ضد رجال تلك القبيلة اليهودية[1]. وذكر باحث آخر ما حدث ليهود بني قريظة واصفًا إياه بأنه مذبحة ارتكبها محمد ضد رجال تلك القبيلة[2].

تأخر الباحثون العرب عن زملائهم من المستشرقين في الخوض بموضوع إنشاء الأمّة الإسلامية، فكان الباحث العراقي صالح أحمد العلي أوّل من تناول هذه المسألة في مقالة نشرها في العدد السابع عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة 1969 وحملت عنوان: "تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة". ثم تناول الموضوع من بعده الباحث اللبناني رضوان السّيد في دراسة له بعنوان: "الأمّة والجماعة والسلطة" وهي دراسة تُعنى بالفكر العربي والإسلامي، صدرت في بيروت سنة 1984[3]، وقبل ذلك بعام واحد نُشر مقال للباحث اللبناني الطيّب زين الدين ضمن مجموعة من الدراسات صدرت في لندن ونيويورك سنة 1983 وذلك في حفل تكريمي لِ R.B. Serjeant بمناسبة خروجه للتقاعد، وكان عنوانه: "المفهوم السياسي لدستور المدينة"، بيّن فيه سبب اعتبار الوثيقة أنها أقدم دستور مكتوب في العالم؛ ذلك لأنها سبقت نشر الوثيقة العُظمى المعروفة بوثيقة الـ Magna Charta في إنجلترا حين أُكره الملك John على إصدارها اعترافًا بحقوق طبقة النبلاء وامتيازاتهم في تلك المملكة[4].

---

[1] Moshe Gil, “The Constitution of Medina, A reconsideration-“, *Israel Oriental Studies* (4), 1974 pp. 44-66.

[2] M.J. Kister, “The Massacre of Banu Qurayza: A Re-examination”, *JSAI*: (1986) pp.61-96.

[3] خليل عثامنة، **التحول المدني وبذور الإنتماء للدولة**، ص57.

[4] Lecker M., The Constitution of Medina, Muhammad’s First Legal Document, Princeton, 2004, pp.1-3

وجاءت مقولة زين الدين تعليقًا وشرحًا لعنوان مقالٍ نشره الباحث الهندي محمد حميد الله حول الوثيقة النبوية واصفًا إياها بأنها "أقدم دستور مسجل في العالم" وذلك ضمن المحاضرات التي ألقيت في "مؤتمر باحثي الإسلام المنعقد في لندن سنة1937، والذي أعيد نشره في "مجلة الأزهر" الصادرة في القاهرة-1969.

وكان الباحث محمد حميد الله أول الباحثين المسلمين اعتناءً بالوثائق النبوية، وبخاصة تلك المتعلّقة بإنشاء الأمّة، أي أمّة الإسلام، حيث جعلها عنوانًا لأطروحة الدكتوراة التي قدّمها لجامعة باريس سنة 1935 تحت عنوان: Documents sur la diplomatie Musalmane à l'époque du prophète et des Khalifes orthodoxies. وهي الدراسة التي ترجمت إلى العربية وصدرت في كتاب بعنوان: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وصدرت في القاهرة سنة 1941[1].

كانت فكرة إنشاء الأمّة نتيجة للتطوّرات الدراماتيكية التي مرّت بها الدعوة الإسلاميّة والتي تمثلت بهجرة النبي والصحابة من مكّة إلى المدينة، حيث تحولت المدينة ملاذًا للدعوة ومنطلقًا لنشاطها في مجتمع الجزيرة العربية، بعد أن باتت مكّة وبات المجتمع القبلي المكّي القطب الذي يناصب دعوة الإسلام العداء والذي يسعى للقضاء عليها مستعينًا بنفوذه الواسع بين قبائل العرب المناهضة للدين الجديد.[2]

كان لِزامًا على محمد (ص) الذي قرر مناهضة هذا الاستقطاب المعادي الذي تترأسه مكة، أن ينشئ كيانًا أو تجمّعًا موازيًا لا يستطيع مواجهة الخصوم فحسب، بل يكون قادرًا على التغلّب عليهم وحسم الصراع لصالحه.

وفي ظل البنية الاجتماعية السائدة في جزيرة العرب آنذاك، والتي شكّلت القبيلة عمادها الأساسيّ، فإن سعي محمد (ص) كان مُنصبًّا على التأليف بين القبائل أو على بطون منها لتشكيل مثل هذا الكيان بعيدًا عن الأفراد بشخوصهم إلا إذا كانوا قادةً يمثلون أبناء قبيلتهم

[1] حميد الله، **مجموعة الوثائق السياسية**، (المقدمة) ي ج

[2] خليل عثامنة، **التحول المدني وبذور الإنتماء للدولة**، ص67.

كافة ولا يحيد أحد من أفرادها عن قراره، فنتج عن سعي محمد (ص) أن تشكّلت الجماعة الإسلامية التي كانت تربط بينها رابطة التحالف أو الولاء، وانتظمت بصيغة أشبه ما تكون بالفدرالية التوافقية.[1]

ثم نشأ عن هذا التوافق نوع من الكيانات أشبه ما تكون بالكونفدرالية السياسية تحت غطاء ديني ولكنه لم يكن كيانًا دينيًا.[2] وصار النبي محمد هو الضامن لبقاء هذا الكيان واستمراره كونه الضّامن لبنود الوثيقة لدى كل الأطراف المشاركة في هذا الكيان المُشَكّل.[3]

وكان بين أغراض هذا التحالف نشوء نوع من التوافق الإداري حول بعض ما يتصل بقضايا الجماعات المشاركة فيه، كتحديد مقادير الدّيّات والوقوف إلى جانب المظلومين ووجوب نصرتهم وتوزيع الأُعْطِيات لمستحقّيها وتحديد حجمها. بينما كانت الغاية القصوى منه سياسية محضة تمثلت بمعاداة مكة والإضرار بها عبر الإغارة على قوافلها التجارية كونها مرفق حياتهم الاقتصادية الذي كاد أن يكون وحيدًا.[4]

الأطراف المشاركة في هذا التَّشكيل:

كانت الخارطة الإثنية لهذا التشكيل الكونفدرالي الذي تكونت منه الأمّة خليطًا متنوعًا من الأعراق والإثنيات ولم تقتصر على عرق أو جنسٍ واحد، فبالإضافة إلى العرق العربي الذي كان يقيم في شمال الجزيرة وجنوبها وكانت نواته من المكّيّين والمدنيين الذين أسمتهم وثيقة التأسيس "المهاجرين والأنصار". وضمَّت هذه الكونفدرالية أفرادًا أو جماعات من أصول ساميّة كالآراميين والعبرانيين وغيرهم من المشرقيين كالفُرس والهنود والأرمن والترك على اختلاف أعراقهم، وانضم إليها عناصر من الأوروبيين من العنصر السلافي واللاتيني من شرق

---

[1] M. Watt, Muh’ At Medina, pp. 247-248.

[2] R.B. Sergeant, Constitution of Medina, pp. 11-12

[3] خليل عثامنة، **التحول المدني**، ص65.

[4] M. Watt, Muh’ At Medina, pp. 250.

أوروبا، ومن غربها كالبيزنطيين واليونانيين، ناهيك عن أعراق إفريقية كالقبط والبربر والأمازيغ والأحباش.[1]

وفي غياب الهوية الدينية لهذا الكيان الناشئ الذي فرضه الواقع السياسي الذي أملته تطورات الدعوة الإسلامية في المدينة، لم يكن غريبًا أن ينخرط فيه أصحاب عقائد دينية مغايرة للإسلام شملت العقيدة الدينية لليهود وللسامرة، وشملت النصارى من عرب وغير عرب، بل شملت بعض العقائد الوثنية المشرقية وغير المشرقية، كالعقيدة الثنوية والمانوية والمجوسية والبوذية، وشملت الزنادقة والدهريين وبعض من كان يدين من العرب بدين إبراهيم[2].

الرُّقعة الجغرافيَّة للأُمّة:

تناولت الوثيقة الجانب الجغرافي لكيان الأمّة، حين جعل أحد بنودها جَوْفَ المدينة حرمًا يحظى بالتقديس والحُرمة[3]، وكبقية الأحرام التي كانت منتشرة في جزيرة العرب بشمالها وجنوبها والذي انتشر من بينها الحرم المكّي[4]، صار جوف المدينة نواة الحيّز المكاني الذي كانت الأمّة تقيم عليه وتسكن فيه، مع ما أضيف إليه من بقاع أخرى تجاوره، حيث صارت هي الأخرى جزءًا لا يتجزأ من الحيّز الجغرافي للأمّة، وذلك بحكم روابط الحِلف أو روابط الجوار والتّبعية التي كانت تقوم بين أبناء القبائل التي تسكن هذه البقاع مع الجماعات التي تشكّل منها كيان الأمّة. وهكذا فإن التخوم الجغرافية للأمّة باتت مفتوحة قابلة للتوسع والتمدد،

---

[1] أكرم ميتز، **الحضارة الإسلامية**، ط: 4، بيروت 1967، ج2 ص459-461؛ نوادر المخطوطات، ابن بطلان، **رسالة في شرى العبيد**، القاهرة 1954، ص342-345.

[2] خليل عثامنة، **التحول المدني**، ص74.

[3] السمهودي، **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، (ط: دار الكتب العلمية)، بيروت 2010، ص24-25؛ القالي البغدادي، **أمالي القالي**، (ط: دار الكتب)، القاهرة، 1926، ج1 ص9.

[4] Watt, Muh' at Medina, pp.225-228; Serjeant, "Haram and Hawta the Sacred Enclave in Arabia", in Melanges Taha Husayn (Cairo, 1962), pp. 14-58.

لا يحدُّها بلدٌ بعينه أو قُطر بعينه من الأقطار[1]، ومن هنا أصبح كلّ من يعتنق الإسلام في أي بلد يفتحه المسلمون، أكان في آسيا أو أفريقيا أو أوروبا، واحدًا من أفراد الأمّة لا يفصله عن أمّة المسلمين فاصل.

على أساس ما سبق، صارت الأمّة كيانًا كونفدراليًا تشكّل من جماعات قبلية ترتبط مع بعضها برابطة القرابة البيولوجية أو ما يُعرف بقرابة الدم، كما هو الحال في القبيلة الواحدة التي ترتبط بصلة الرحم، وهي الحال التي تفرض نوعًا من رسوخ الانتماء وثباته، إذ لا يستطيع الفرد المنتمي إلى قبيلة ما أن ينقل ولاءه وانتماءه إلى قبيلة أخرى تلبيةً لرغبة أو نزوة، يُعيقه عن ذلك غياب صلة الرحم مع تلك القبيلة. في حين أن الانخراط في الأمّة يكون سهلًا ميسورًا لمجرّد أن يعتنق الرجل الإسلام[2].

بعد الفراغ من هذه الإضاءات حول الأبعاد الدينية والإتنوغرافية والجيوسياسية لهذه الوثيقة التي أعلنت نشوء الأمّة، بقي علينا أن نتناول البُعد الدلالي لمصطلح "الأمّة" فيما يختص بمكانتها وتميّزها ودورها الوظيفي الذي تَقَرّر بموجبه مصائر الأمم.

أغفلت الوثيقة النبوية أيّ ذِكرٍ لمعنى "الأمّة" في لفظه أو مصطلحه، وكل ما أوردته لم يتعَدَّ ذكر السياق التاريخي للحدث الذي كُتبت فيه، وهو ما تناقله الرواة عن ابن شهاب الزُّهري من أمر الوثيقة التي كتبها النبي بين المهاجرين والأنصار ومن تبِعهم ولحِق بهم وجاهد معهم واصطلح على تسميتهم أنهم أُمّة.

هذا الإغفال في السيرة النبوية وفي كتب الأوائل لم يأتِ اعتباطًا، ولكنه أتى على ما يبدو نتيجة فهم وإدراك لمعنى ذلك المُصطلح عند أجيال المسلمين الأولى التي عاصرت الرواة الأوائل لهذه الأخبار، ولم تكن بهم حاجة لشرحه أو توضيح معناه.[3]

---

[1] Serjeant, “The Constitution of Medina”, The Islamic Quarterly,8 (1964), pp.3-16.

[2] خليل عثامنة، التحول المدني، ص75-76.

[3] كان إغفال المصادر لذكر معنى هذا المصطلح مدعاةً لتصدّي بعض المستشرقين لمحاولة شرحه وتوضيح معناه، وبرز بين هؤلاء الباحث الألماني Josef Horovitz في دراسة له صدرت في برلين بعنوان Koranische Unterschanagen سنة 1926، ص52. ثم أتبع مستشرق آخر وهو الألماني Rudi Paret ذلك

استمرّ الغموض الذي يكتنف مدلول مصطلح الأمّة على حالهِ دون شرْح أو إيضاح، وبقي مُعطّلًا عن التعريف كما ورد في روايات الأخباريين الأوائل، ولذا تصدّى جماعة من الباحثين والمستشرقين لمحاولة استجلاء غموضه من خلال عددٍ من الدّراسات، ولكنّ أقصى ما توصّلت إليه جهود بعضهم أنها نجحت في الكشف عن أصل هذا اللفظ، فبيّنت أنه مأخوذ عن اللغة السّومرية، وأنه قد تمّ تعريبه قبل الدّعوة الإسلامية بزمن طويل، وأن جذور هذا اللفظ لا تمُتّ بصلة إلى اللغة الآرامية أو اللغة العبرية.[1]

بينما ذهبت بعض الآراء إلى الكشف عن مسيرة التطوّر الذي مرّ بها مدلول هذا المصطلح، حتى صار إسمًا للطائفة التي اعتنقت الإسلام كما بشّر به النبي محمد. ورأى باحث آخر أن المصطلح قد تسمّت به مجموعة من القبائل التي ارتبطت مع بعضها البعض برباط كونفدرالي لا يرقى إلى توحد عضوي كامل.[2]

القول الفصل في معنى "الأمّة"

إن التقصير عن إيفاء مصطلح الأمّة حقّه من الشرح والتفسير، سواءً كان ناجمًا عن إغفال نصّ الوثيقة له، أو كان ناتجًا عن قصور الباحثين في الاهتداء إلى معناه الدقيق، قد تلافتْهُ بعض آيات وردت في الوحيِ المُنزّل على محمد (ص)، فأماطت اللثام عمّا غمضَ من معنى المصطلح ومدلوله، فبيّنت ماهيّة الأمّة والميزَة التي ميّزتها عن سائر الأمم، وفصّلت من ناحيةٍ أخرى الدّورَ الذي أناطه الله بها لكي تكون الأمّة التي تقرر مصائر الأمم يوم الحساب، مَن اهتدى منها ومَن ضلّ. فجاء في سورة البقرة (س 2: 143) قوله عزّ وجل: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا". ثم أردفت هذه الآية بآية أخرى وردت في سورة آل عمران (3: 110) فجاءت أكثر وضوحًا، حين جعلت من أمّة الإسلام

في دراسة نشرها في الطبعة الجديدة لدائرة المعارف الإسلامية بعنوان: "Umma" في الموسوعة Encyclopedia of Islam (new ed.)

[1] Rudi Paret, “Umma”, **Encyclopedia of Islam** (New Edition)

[2] قاسم الشريف، نشأة الدولة الإسلامية، ص23-24.

أفضل أمم الأرض بإطلاق، فقال جلّ ذِكره: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ". فكانت هذه الآية بمثابة تفسير للعبارة المفتاحية التي استُهِلّت بها الآية السابقة في سورة البقرة وهي عبارة "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا" أي جعلناكم أفضل الأُمم، وقد عزّزت شروح علماء التفسير القرآني هذا المعنى حين ألقت الضوء على المقصود من تلك العبارة، أي عبارة "أُمَّةً وَسَطًا" فزادتها وُضوحًا وبيانًا، فأتت بعبارة مرادفة تفسّرها وتشرح معناها، فأجمع العلماء على القول: "إنكم معشر المسلمين خيرُ أمم الأرضِ"، بمعنى أنكم خُلقتم أو وُجِدتم لتكونوا خيرَ الأمم، لأن فِعلَ الجَعْلِ وفِعْلَ الكينونة الوارد في الآيتين إنما يعني الواقع الرّاهن والكائن المُستمرّ.[1]

وبالرغم من وضوح معنى عبارة "وكذلك جعلناكم أمّةً وسطًا" حيثُ دلّت بأن الله قد آختار هذه الأمّة لتكون فوق الأمم الأخرى، لأنها الأمّة الأفضل والأكثر عدولًا من غيرها، وهو التفسير الذي أجمع عليه جمهور علماء التفسير ووافقهم في ذلك المشاهير من أئمة اللغة وأصحاب المعاجم،[2] فقد فطن بعض المفسّرين إلى التناقض القائم بين تفضيل الله تعالى لأمّة محمد

[1] مقاتل بن سليمان، **تفسير مقاتل**، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002/ 1424 هـ، ج1 ص186؛ ابن جرير الطّبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (الطبعة الثالثة، 1968)، ج4 ص 45؛ القُرطبي محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ج4 ص110؛ السيوطي، عبد الرحمن جلال، **الدّر المنثور في التفسير بالمأثور**، (دار الفكر)، بيروت، 1983، ج2 ص 294.

[2] **تفسير القرطبي**، م. س.، ج2 ص104-105؛ تفسير الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، **الكشف والبيان في تفسير القرآن**، (تحقيق: سيد كسروي حسن)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ج1 ص204-205؛ تفسير البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (طبعة مصطفى البابي الحلبي)، الطبعة الثانية، القاهرة، 1955\ 1375 هـ، (القسم الأول)، ص38؛ **الدّر المنثور**، (م. س.)، ج1 ص348 وما بعدها؛ تفسير الطبرسي، الفضل بن حسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961 ج2 ص7-9؛ **تفسير مقاتل**، (م. س.)، ج 1 ص 83؛ تفسير الكشاف، محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، (مكتبة مصر للطباعة)، القاهرة، ج1 ص 183-184؛ تفسير العيّاشي، أبو النصر، ابن عياش السُّلمي السَّمرقندي، **تفسير العيّاشي**، (مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1991، ص81-82؛ تفسير الطبري، (م.

على غيرهم، مع ما ورد في الآيات الأخرى وهي (البقرة، س 2: 47)، (البقرة، س 2: 122)، (الأعراف، س 7: 140) حيث جاء فيها أن الله فضّل بني إسرائيل على العالمين، فالتمسوا تفسيرًا لهذا التناقض فقالوا: إن الله فضّل أمّة الإسلام في زمانها هذا، أي الزمن الآنيّ، كما كان فضّل بني إسرائيل في زمانهم.[1]

وقد تنكّرت فئة من الناس لهذا الإجماع وتمثَّلَ تنكُّرها بتحريف اللفظ "وسَطًا" ونقله من منزلة الإسمية إلى منزلة الظّرفية، ثم استنبطوا اشتقاقًا بصيغة مصدر صناعي من ذلك الظّرف. وهو ما نتج عنه مصطلح مُحدّث هو مصطلح "الوسطيّة" فأضافوا هذا المصطلح إلى الأمّة، فجعلوا أمتنا أي، أمّة الإسلام، أُمّةً وَسَطِيَّةً، بعد أن جعلها الله "أمّةً وَسَطًا". وهو أمر غريب ومُستهجَن، إذ تساوى فِعل هؤلاء مع ما كان يفعله القوم الذين أشار لهم في كتابه فقال فيهم: "مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ"[2]

الأمّة الوسط، ما دلالتها؟

استعان اللغويون وجمهور المفسّرين بشواهد من الشعر الجاهلي وبأقوال نثرية تراثية، للتدليل على أن صفة الوسط في هذه العبارة إنما تعني سادة القوم وأعيان الناس، كونهم يمثلون الشريحة الفُضلى في نظر أقوامهم وقبائلهم، فيكونون مَناطَ الأمل ومعقد الرّجاءِ في تلك المجتمعات.

فصفة الوسط عندما تضاف إلى فردٍ أو إلى جماعة، فإنها ترمز إلى سيادة ذلك الفرد أو تلك الجماعة على الآخرين، فيكون صاحب المرجعيّة وصاحب القرار النّافذ عند قومه أو أبناء

س.)، ج2 ص6-10؛ تفسير ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي الدّمشقي، **تفسير القرآن الكريم**، (دار إحياء التراث)، بيروت 1388 هـ/ 1969، ج1 ص190-191؛ **تفسير الضّحاك**، أبو القاسم، الضحاك بن مزاحم البلخي، جمع وتحقيق: محمد شكري الزّاويتي، (دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، 1419هـ/ 1999، ص 166؛ الفرّاء، أبو زكريا، يحيى بن زياد الفرّاء، **معاني القرآن**، (عالم الكتب)، الطبعة الثانية، بيروت، 1980، ج1 ص83.

[1] تفسير مقاتل، (م. س.)، ج3 ص 110.

[2] سورة النساء، 4: 46.

قبيلته. وهذا ما أكّدته الآية الكريمة في شِقّها الثاني وذلك في قوله تعالى: "لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ" حيث تمّمت هذه العبارة الشّق الأول من الآية الكريمة وهو البُعد القيادي الذي تمثّل في قوله تعالى: "جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"، فكلمة "شهداء" في النص إنما تعني أصحاب القول الفصل وأصحاب الحكم النّافذ الذي لا يُرَدّ. وهذا هو حال القيادة السياسية في المجتمعات المعياريّة، فهي قيادة يُطيع الناس أحكامها وقراراتها.[1]

وتأكيدًا لهذه الميزة التي تتصف بها الأمّة والتي خصَّها الله بها، استدلَّ المُفسّرون ببيتٍ من الشّعر أنشده الشاعر الجاهلي زُهير بن أبي سُلمى فقال:

[هُم وَسَطٌ يَرضى الأَنامُ بِحُكمِهِم   إِذَا نَزَلَت إحدى اللّيالِي بِمُعظَمِ]

فجعل القرارات والأَحكام التي تصدرها القيادة السياسية، مقبولةً ومُطاعَةً في كُلّ ما ينوبُ الأمّةَ من نوائب.[2]

وتأكّدت الصلة بين مصطلح الوَسَطيّة وبين مبدأ السّيادة على الآخرين كذلك فيما أُثِرَ عن كبار الصّحابة ورُواة الحديث، كما جاء في الكلمة التي ألقاها أبو بكرٍ في يوم السّقيفة، سقيفة بني ساعِدَة، رَدًّا على مزاعم الأنصار بأنهم الأَوْلى بخِلافة النبي من غيرهم، فقال مُعَلّلًا حقّ المُهاجرين بين ما قال: "وَلَن تعرفَ العربُ هذا الأمرَ، إلّا لِهذا الحَيّ مِن قُريشٍ، فَهُم أوْسَطُ العُربِ نسبًا ودارًا".[3]

وتكرّر ذِكر هذا المُصطلح بِصِيَغٍ مختلفة من المُشتقّات، وكلها تؤدي المعنى نَفْسَهُ، فرأيناه قد أتى على صيغة أفعل التفضيل كما في المثال السّابق، وأحيانا يأتي على صيغة الصفة المُشَبّهة فيُقال فلان وسيط الدّار أو وسيط النَّسَب، إذا كانَ حسيبًا رفيع النسب. ورُوِيَ بيت من

---

[1] **التحوّل المدني**، (م. س.)، ص 77.

[2] **تفسير الطبري**، (م. س.)، ج2 ص6؛ **تفسير الطّبرسِي**، (م. س.) ج2 ص 7؛ **تفسير الثعلبي**، (م. س.)، ج1 ص204-205؛ **تفسير القرطبي**، (م. س.)، ج2 ص 104.

[3] ابن **هشام**، (م. س.)، ج3 ص107؛ **تاريخ الطبري**، (م. س.)، ج2 ص205-206؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة، 1959، ج1 ص582.

الشّعر تردُ فيه هذه الصيغة، فقال العَرْجي، (وهو الشاعر عبد الله بن عُمر بن عَمرو بن عثمان، من أحفاد الخليفة الثالث):

[كَأنّي لم أَكُنْ فيهِم وَسيطًا   ولَم تَكُ نِسْبَتي في آلِ عَمْرِ]

كما وردت صيغة الفعل المجرّد لتُدَلّل هي الأخرى على أُرومة الأصل وكَرَمِ الحَسَبِ، فقال زهير في هذا المعنى:

[يَسِطُ البُيوتَ لكي تَكونَ رَدِيّةً   من حيثُ تُوضَعُ جَفْنَةُ المُسْتَرْفِدِ]،

أي إنّ المَمدوح في هذا البيت، انّما يمثّل العُنصر الأفضل من أهل الأُسَر والعائلات التي تتوارث السّيادة في القبيلة، وكونه كذلك نجده دائمًا مقصد أصحاب الحاجة من طالبي الإجارة أو المسترفدين الباحثين عن المعونات المادية[1].

[1] ابن منظور الأفريقي، **لسان العَرَب** (دار صادر)، بيروت، 1968، ج7 ص430؛ قارن أيضا: أبو العباس ثعلب، **شرح ديوان زهير**، (نسخة دار الكتب) القاهرة؛

Khalil Athamina, “The pre- Islamic Roots of Early Caliphate, the Emergence of Abu-Bakr, *Der Islam*(76) 1999, pp.1-32.